شعبان شهر الاستعداد لرمضان

قال -ﷺ-: «افْعَلُوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ، وَتَعَرَّضُوا لِنَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفَحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَسَلُوا اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ، وَأَنْ يُؤَمِّنَ رَوْعَاتِكُمْ» [رواه الطبراني، وحسنه الألباني].

إن لله نفحات رحمة فتعرضوا لها، ومواسم خير فاطلبوها، وأوقات فضل فاحرصوا عليها، وقد أقبلت عليكم فاستقبِلُوها، وحلَّت بكم فاغتنِمُوها، فإنها لحظات تمضي كلمح البصر، فواضيعةَ العمرِ لمن ضيعها، ويا سعادةَ مَنْ ظَفِرَ بها واغتنمها، (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) [الْفُرْقَانِ: 62].

مَضَى رَجَبٌ وَمَا قَدَّمْتَ فِيهِ *** وَهَذَا شَهْرُ شَعْبَانَ الْمُبَارَكْ

فَيَا مَنْ ضَيَّعَ الْأَوْقَاتَ جَهْلًا *** بِحُرْمَتِهَا أَفِقْ وَاحْذَرْ بَوَارَكْ

فَسَوْفَ تُفَارِقُ اللَّذَّاتِ قَهْرًا *** وَيُخْلِي الْمَوْتُ كُرْهًا مِنْكَ دَارَكْ

تَدَارَكْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا *** بِتَوْبَةِ مُخْلِصٍ وَاجْعَلْ مَدَارَكْ

عَلَى طَلَبِ السَّلَامَةِ مِنْ جَحِيمٍ *** فَخَيْرُ ذَوِي الْجَرَائِمِ مَنْ تَدَارَكْ

المؤمن يتقلب في هذا الزمان، يمد الله له في الأجل، فلا يوم يمرُّ عليه يوم أو ليلة من جملة هذا الزمن الذي كتب الله له أن يعيشه؛ إلا ويستثمر ذلك الوقت فيما يقربه عند ربه -عز وجل-، فالمؤمن يعرف قدر الزمن، ويعرف قيمة العمر، ويعرف أن أنفاسه محسوبة عليه، وإن كل يوم إن لم يقربه من الله فهو يباعده عن ربه؛ إذا أتَى عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيهِ علمًا يُقرّبُني إلى اللهِ تعالى ، فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذلكَ اليومِ، ولذلك فهو يستغل الشهور والأيام في طاعة الله -عز وجل-؛ لأنه يعلم أن الدنيا إنما هي مزرعة للآخرة، ليست الدنيا هي وقت الحصاد، بل هي وقت الحرث ووقت الزرع، أما الحصاد والنتاج فيلقاه غدا حين يلقى ربه، غدا توفى النفوس ما صنعت، ويحصِد الزارعون ما زرعوا؛ إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا.

ومن رحمة الله بهذه الأمة -أمة محمدٍ -ﷺ- أن جعل أعمارها قصيرة، وذلك فيه فائدة حتى لا تكثر الذنوب والمعاصي، وربما قال قائل: "ولكن في المقابل هذا يضر من أراد أن يستغل كثرة الأيام في طاعة الله!".

يحدثنا الصحابي الجليل، أحدُ العشرة الكرام المبشرين بالجنة، طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ -رضي الله عنه- بهذا الخبر فيقول: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ -ﷺ- رَجُلانِ مِنْ بَلِيٍّ(قبيلة بلي)، فَكَانَ إِسْلامُهُمَا جَمِيعًا وَاحِدًا، وَكَانَ أَحَدُهُمَا أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنَ الآخَرِ، فَغَزَا الْمُجْتَهِدُ فَاسْتُشْهِدَ، وَعَاشَ الآخَرُ سَنَةً حَتَّى صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ مَاتَ، فَرَأَى طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ خَارِجًا خَرَجَ مِنَ الْجَنَّةِ فَأَذِنَ لِلَّذِي تُوُفِّيَ آخِرَهُمَا ثُمَّ خَرَجَ، فَأَذِنَ لِلَّذِي اسْتُشْهِدَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى طَلْحَةَ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْنِ لَكَ. فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ -ﷺ- فَحَدَّثُوهُ الْحَدِيثَ وَعَجِبُوا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ اجْتِهَادًا، وَاسْتُشْهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدَخَلَ هَذَا الْجَنَّةَ قَبْلَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-: "أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ بِسَنَةٍ؟". قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: "وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَهُ، وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا فِي الْمَسْجِدِ فِي السَنَةِ؟". قَالُوا: بَلَى. قَالَ: "فَلَمَا بَيْنَهُمَا أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ!" رواه أحمد وابن ماجه وصححه ابن حبان.

لذلك قلوب المؤمنين تترقب بلهفةٍ ذاك الشهرَ العظيم، والضيفَ الكريم، الذي يرونه نعمة كبرى، وهبةً عظمى من الرب الكريم، لهذا كان السلفُ -رضي الله عنهم- يجعلون دخول شهر شعبان للاستعداد المبكّر لاستقبال رمضان، حتى لا يدخل عليهم الشهرُ الفضيل إلا وقد روّضوا أنفسَهم على ألوانٍ من الطاعات والقُربات.

ولقد كان نبينا محمد -ﷺ- سابِقهم إلى ذلك؛ فكان كثير الصيام في شعبان، حتى قالت أمنا عائشة -رضي الله عنها-: "وما رَأَيْتُ رَسولَ اللَّهِ -ﷺ- اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ إلَّا رَمَضَانَ، وما رَأَيْتُهُ أكْثَرَ صِيَامًا منه في شَعْبَانَ "(متفق عليه).

"وعن أسامة بن زيد قال: يا رسولَ اللَّهِ! لم ارك تَصومُ شَهرًا منَ الشُّهورِ ما تصومُ من شعبانَ؟! قالَ: ذلِكَ شَهْرٌ يَغفُلُ النَّاسُ عنهُ بينَ رجبٍ ورمضانَ، وَهوَ شَهْرٌ تُرفَعُ فيهِ الأعمالُ إلى ربِّ العالمينَ، فأحبُّ أن يُرفَعَ عمَلي وأَنا صائمٌ". صحيح النسائي

وإنَّما كان يُكثِرُ مِن الصِّيامِ في شَهرِ شَعبانَ خُصوصًا؛ لأنَّه شَهرٌ تُرفَعُ فيه الأعمالُ لربِّ العالَمِين، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحِبُّ أنْ يُرفَعَ عملُه وهو صائمٌ، كما أنَّه شَهرٌ يَغفُلُ عنه كَثيرٌ مِن النَّاسِ بيْن رجَب ورَمَضانَ، كما بيَّن ذلك في رِوايةٍ عندَ النَّسائيِّ وأحمَدَ. الدرر السنية

إن الغفلة داء عضال، ومقت ووبال، تقطع الصلةَ بين العبد وربه، فلا يشعر بإثمه، ولا يقلع عن نزره، ولا يتوب من ذنبه، فلا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، تمر به مواسم الخير وفضائل الأوقات وهو في سبات الغفلة لم ينتبه، يبصر فلا يعتبر، ويوعظ فلا ينزجر، ويذكر فلا يدكر.

فالناس يغفلون عن شعبان وعن فضله ومكانته عند الله –عز وجل–، فهو بين شهرين عظيمين، شهر رجب وهو من الأشهر الحرم، وشهر رمضان وصيامه أحد أركان الإسلام، ثم بيَّن لنا النبي –ﷺ– عن حدث عظيم يوضح مكانة هذا الشهر؛ وهو أن أعمال العباد ترفع إلى الله –عز وجل– فيه.

مواقيت رفع أعمال العباد: ثَمَّة تقارير يومية، وأسبوعية، وسنوية، وختامية، تُرفَع عن كل عبدٍ من عباد الله إلى ربه – تبارك وتعالى – كما دلَّت على ذلك نصوصُ الكتاب والسنة النبوية الصحيحة.

أما دليل رفع التقارير اليومية، فما جاء في حديث أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: " قامَ فِينا رَسولُ اللهِ –ﷺ–بخَمْسِ كَلِماتٍ، فقالَ: إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ لا يَنامُ، ولا يَنْبَغِي له أنْ يَنامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُهُ (ميزانُ العدلِ والأرزاقِ الَّذي يَعدِلُ به بينَ عِبادِه فيُضيِّقُ ويُوسِّعُ عليهم؛ لِحِكمةٍ عندَه سُبحانَه وتعالَى)، يُرْفَعُ إلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ...))؛ [رواه مسلم].

قال المناوي: "معناه يُرفَع إليه عملُ النهار في أول الليل الذي بعده، وعملُ الليل في أول النهار الذي بعده؛ فإن الحَفَظة يصعدون بأعمال الليل بعد انقضائه في أول النهار، ويصعدون بأعمال النهار بعد انقضائه في أول الليل".⇦وهذا الرفع يُطلَق عليه الرفع الخاص؛ أي: خاص بعمل الأيام والليالي.

وأما التقارير الأسبوعية: فترفع كل اثنين وخميس؛ كما جاء في حديث أبي هريرة عن رسول الله –ﷺ– قال: ((تُعرَض أعمال الناس في كلِّ جمعةٍ مرتين، يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفَر لكل عبد مؤمن، إلا عبدًا بينه وبين أخيه شَحْنَاء، فيقال: اتركوا هذين حتى يَفِيئا))؛ [رواه مسلم]، وهذا الرفع خاص بعمل العبد خلال الأسبوع.

وأما التقارير السنوية: فتُرفَع في شهر شعبانَ؛ كما جاء في حديث أسامة بن زيد – رضي الله عنه – وفيه: ((ذلك شهرٌ يَغفُل الناس عنه بين رجبٍ ورمضانَ، وهو شهرٌ تُرفَع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأُحِبُّ أن يُرفَع عملي وأنا صائم))؛ [رواه النسائي، وحسَّنه الألباني]. وهذا الرفع يشمل رفع جميع أعمال السنة.

✿وأما التقارير الختامية: فتكون عند انقضاء الأَجَل، وانتقال الروح إلى باريها، فحينئذٍ تطوى صحيفة عمله، ويُختَم عليها، ثم ترفع إلى ملك الملوك – تبارك وتعالى – نسأل الله أن يحسن خاتمتنا.

قال–ﷺ–: "ذلك شهرٌ يَغفُل الناس عنه بين رجبٍ ورمضانَ، وهو شهرٌ تُرفَع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأُحِبُّ أن يُرفَع عملي وأنا صائم"

قال ابن رجب –رحمه الله–: "وفيه دليل على استحباب عمارة أوقات غفلة الناس بالطاعة، وأن ذلك محبوبٌ لله عز وجل...، ولذلك فُضّلَ القيامُ في وسط الليل لشمول الغفلة لأكثر الناس فيه عن الذِّكر"(لطائف المعارف لابن رجب، ص: 131).

هذا الحديث يجعل المسلم يعيش في يقظة، يزداد خوفه وطاعته وتقل معاصيه وذنوبه، فالإيمان بأن الأعمال تعرض على الرب –جل وعلا– في شهر شعبان، يؤصل همّ الآخرة ويجعل المسلم في مراقبة ويقظة دائمة، خوفًا أن يرفع له عمل يغضب الله –عز وجل–، فإذا لم تستطع أن ترفع لنفسك صيامًا فلا أقل أن تجعل هذه المعلومة في خاطرك وفكرك؛ لأن النبي –ﷺ–ما ذكرها عبثًا؛ لعله أن يصيبك بعض الهمّ والخوف، وهذا في حد ذاته مطلوب وله ثمرته؛ لأنه سيدفعك لتزداد طاعة أو تقلع عن معصية.

قال –ﷺ–: "الْعِبادَةُ في الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إلَيَّ". صحيح مسلم.

وفي هذا الحديثِ يُخبِرُ النَّبيُّ –ﷺ–أنَّ العِبادةَ في الهرْجِ –وهو وقتُ الفِتَنِ واختِلاطِ الأُمورِ وتَخبُّطِ النَّاسِ في فَسادِ الدُّنيا وانهماكِهم فيه– كهِجرةٍ إليه –ﷺ–، أي: كثَوابِ الهِجرةِ مِن مكَّةَ إلى المدينةِ يوْمَ أنْ كانتِ الهجرةُ واجبةً، وسَببُ كَثرةِ فَضلِ العبادةِ في هذا الوقتِ: أنَّ النَّاسَ يَغفُلون عنِ العِبادةِ في تلك الأوقاتِ ويَشتَغلونَ عنها ولا يَتفرَّغُ لَها إلَّا قَليلون، ولأنَّ الهِجرةَ تَبْتني على تَركِ الوطنِ والدَّارِ ورَغائبِها للهِ، والعبادةُ في الهرْجِ أيضًا تَبْتني على تَركِ رَغائبِ الدُّنيا للهِ، وكما أنَّ المهاجرينَ في أوَّلِ الأمرِ كانوا قَليلين؛ لعدَمِ تَمكُّنِ أكثرِ النَّاسِ مِن ذلكَ، فهكذا العابِدون في الهرْجِ قَليلون. الدرر السنية

قال –ﷺ–: "إنَّ مِنْ ورائِكُمْ أيامَ الصبرِ الصبرُ فيهِنَّ كَقَبْضٍ علَى الجمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهَا أَجْرُ خَمْسِينَ قالوا يا رسولَ اللهِ أجْرُ خمسينَ منهم أَوْ خمسينَ مِنَّا قال خمسينَ مِنْكُمْ". السلسلة الصحيحة

قال –ﷺ–: "بدأ الإسلامُ غريبًا وسيعودُ غريبًا كما بدأ فطُوبى للغرباءِ، قيل يا رسولَ اللهِ: مَن الغرباءُ؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناسُ، وفي لفظٍ آخرَ قال : هم الذين يُصلِحون ما أفسد الناسُ من سنتي". السلسلة الصحيحة

وقال -ﷺ-: "سَبَقَ المفَرِّدُونَ، قالوا: وَما المفَرِّدُون يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ". رواه مسلم.

قال المناوي رحمه الله: "المفردون: أي المنفردون المعتزلون عن الناس، من فرد إذا اعتزل وتخلى للعبادة، فكأنه أفرد نفسه بالتبتل إلى الله تعالى". فهؤلاء لما ذكروا الله وقد غفل غيرهم كان السبق لهم.

وقال -ﷺ-: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ» رواه الترمذي.

فيه بيان فضيلة الطاعة والعبادة في وقت الغفلة، حين يكثر اللهو، وتستحكم الغفلة، وينشغل الناس بدنياهم، فإن المؤمن لا ينسى ربه بل يكون على ارتباط وثيق بالله -عز وجل-، لا تصرفه الدنيا وبهرجها وملذاتها وزخارفها عن الاتصال بمولاه؛ ولهذا كان طائفة من السلف -رحمهم الله- يستحبون العبادة بين المغرب والعشاء، ويقولون: "هذه ساعة غفلة"؛ أي: أن الناس يغفلون فيها، فيقوم العابد الصالح التقي يؤدي فيها عبادة، يرتبط فيها بالله -تبارك وتعالى-.

يقول الإمام ابن الجوزي -رحمه الله-: "اعلم أن الأوقات التي يغفل الناس عنها معظمة القدر -يعني عند الله-؛ لاشتغال الناس بالعادات والشهوات، فإذا ثابر عليها طالِبُ الفضل دل على حرصه على الخير؛ ولهذا فُضِّلَ شهودُ الفجر في جماعةٍ لغفلةِ كثير من الناس عن ذلك الوقت، وفضل ما بين العشاءين وفضل قيامُ نصفِ الليل ووقتِ السحر"، إذن المؤمن لا يغفل عن ربه، بل إنه يتتبع مواطن الغفلة فيزيد فيها من الطاعة؛ فيكون بالمنزلة العليا عند الله -عز وجل-.

ومما جاء في فضيلة الحرص على الطاعات حين يغفل الناس ما رواه أبو نعيم في الحلية عن عون بن عبد الله قال: "إن الله -تعالى- ليدخل الجنة قوما فيعطيهم حتى يملّوا، وفوقهم ناس في الدرجات العلى، فلما نظروا إليهم عرفوهم، فيقولون: يا ربنا إخواننا كنا معهم، فبم فضلتهم علينا؟! فيقول: هيهات هيهات، إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويظمؤون حين ترووَن، ويقومون حين تنامون، ويشخصون حين تخفضون"

يخرجون إلى القتال وأنتم وادعون في خفض العيش.

فعظموا هذا الشهر بعمارته بسائر الطاعات والقربات خصوصًا الصيام، تمرين النفس وترويضها على أن تستعد لصيام شهر رمضان؛ فإن النفس إذا أُهمِلت أَلِفَت الدعة والترف، وأما إذا روَّضتها بالعبادة سهلت عليها العبادة، فيأتي رمضان وقد هيأتَ نفسك للصيام فصارت أيامه سهلة عليك، وصرت تتلذذ بصيامه، واستثمرت أوقاته بطاعة الله -عز وجل-؛ ولهذا يقول ابن رجب الحنبلي -رحمه الله-: "قيل

في صوم شعبان إن صيامه كالتمرين على صيام رمضان؛ لئلا يدخل في صوم رمضان على مشقة وكلفة، بل يكون قد تمرن على الصيام واعتاده، ووجد بصيام شعبان قبله حلاوة الصيام ولذته، فيدخل في صيام رمضان بقوة ونشاط".

فإن لم تستطع الصيام فيه فكف عينيك عن رؤية الحرام، ولسانك عن القيل والقال، وابتعد عن أكل الحرام، احترامًا لهذا الشهر، فإن عملك يرفع فيه ويعرض على الله.

ومن فضائل شهر شعبان أن الرب -جل وعلا- ينزل إلى السماء الدنيا في ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل المسلمين إلا المتشاحنين، حيث روى أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- قال: "إن الله -تعالى- ليطلع في ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه، إلا لمشرك أو مشاحن" (رواه ابن ماجه والطبراني وصححه الألباني).

فتأملوا خطورة الشحناء والبغضاء بين الناس، فإن الله -تعالى- لا يغفر للمتشاحنين، والشحناء هي: حقد المسلم على أخيه المسلم بغضا له لهوى في نفسه، لا لغرض شرعي ومندوحة دينية، فهذه تمنع المغفرة في أكثر أوقات المغفرة والرحمة، وهذه المغفرة لا تحدث في شعبان فقط وإنما تتكرر كل أسبوع مرتين كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- قال: "تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا".

لذلك ينبغي استغلال هذا الشهر الذي ترفع فيه الأعمال إلى الله -تعالى-، ويغفل عنه كثير من الناس؛ بالعمل الصالح، كما ينبغي لكل متهاجرين ومتخاصمين التصالح فيما بينهما؛ كي لا يحرموا ثواب المغفرة، فإن الله -تعالى- يغفر لكل خلقه في ليلة النصف من شعبان إلا للمشركين والمتشاحنين.

ولا يُشرع تخصيص يوم النصف من شعبان من دون سائر الشهر بصيام، ولا ليلته بقيام، لعدم ثبوت ذلك عن النبي -ﷺ-.

فبعض الناس يخصص يوم النصف من شعبان بالصيام وليلتها بالقيام وببعض الأدعية والأذكار وإنشاد بعض الأشعار، ولم يثبت ذلك كله عن النبي -ﷺ-، وإنما جاء في أحاديث ضعيفة أو موضوعة مكذوبة على رسول الله -ﷺ- كما قال ابن رجب وغيره من أهل العلم، وكل هذا لا تقوم به حجة ولا يُعمل به في الأحكام.

أما من كان من عادته قيام الليل فلا يترك قيام الليل في تلك الليلة، ومن كان من عادته صيام النوافل فوافق ذلك يوم النصف من شعبان فليصم ولا يترك الصيام، وكذلك من كان من عادته أن يصوم في شعبان فليصمه اقتداءً بالنبي -ﷺ-.

كما لا يفوتني أن أذكر من كان عليه صيام أيام مِن رمضان الماضي فليبادر إلى صيامها في هذا الشهر قبل مجيء رمضان.

ومن أحكام شهر شعبان أنه لا يجوز صيام اليومين الأخيرين منه، بنية استقبال رمضان أو الاحتياط لرمضان إلا من كان معتاد صيام الاثنين والخميس أو عليه قضاء، لما رواه أبو هريرة —رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ-قال: "لا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدُكُمْ رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمَهُ فَلْيَصُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ" (متفق عليه).

لقد انتشر عند بعض الناس اعتقاد بأن شعبان شهر تتساقط فيه الأرواح، أي يكثر فيه عدد الأموات، ولقد تولد هذا الإحساس بسبب اعتقاد بعض الناس بأن ليلة النصف من شعبان هي الليلة التي تنسخ فيها الآجال ويُفْرَقُ فيها كل أمرٍ حكيم، وهذا يخالف صريح القرآن، قال -عز وجل-:(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) [الدخان: 1- 4]، فبيَّن -تبارك وتعالى- أن الكتاب المبين أُنزل في ليلة مباركة، وهذه الليلة المباركة هي التي يفرق فيها كل أمر حكيم، وكلنا يعرف أن تلك الليلة المباركة هي ليلة القدر استنادًا لقوله جلا وعلا: في سورة القدر: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) [القدر: 1- 2].

كان السلف يعتبرون دخول شعبان بمثابة الفترة التدريبية التي تسبق دخول مضمار السباق، والبوابة الممهِّدة للدخول في السباق الأخروي، وأيقنوا أن الخيل التي لا تُضمَّر ولا تَتَدرب؛ لا تستطيع مواصلة السباق وقت المنافسة كما ينبغي، بل قد تتفاجأ بتوقّفها أثناء الطريق... وهذا ما يفسّر لنا حماسَ بعضِ الناس في أول أيام شهر رمضان، ثم فتورهم في وسط الشهر وفي آخره.

وأيضاً: فمن الناس من يبقى عدة أيام وليالٍ في رمضان وهو يدرّب نفسَه ويجاهدها، فلا يشعر إلا وربعُ الشهر أو ثلثُه قد فاته وهو ما يزال يُجري التمارين البدنية والقلبية، فيفوته خيرٌ كثير!

ولهذا — أيها الأحبة - لما كانت الصلاة أعظم الأعمال؛ جعل الله بين يديها من الأعمال ما يعين على تلقيها بما ينبغي لها:

- فشُرِع لها الأذان.

- ومشروعية تقدم الرجال للمسجد.

- ومشروعية السنن الرواتب لها، إما قبلها أو بعدها؛ حتى يتهيأ العبدُ لهذه الفريضة التي هي من أعظم ما فرض الله على العباد، ويرقع ما وقع فيها من نقص.

والعاقلُ من عرف شرف زمانه، وقيمة حياته، وعظّم مواسمَ الآخرة، واستعد لهذا الزمان العظيم من الآن، وهيأ قلبَه ليتلقى هبات الله له بقلب سليمٍ، متخفِّف مما ينغّص عليه التلذذ بالطاعات.

حري بالمؤمن الصالح الحريص على الخير أن يهيئ نفسه لاستقباله:

أولاً: بالدعاء أن يبلغنا الله إياه كما كان السلف يفعلون، قال معلى بن الفضل: «كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ثم يدعونه ستة أشهر أخرى أن يتقبل منهم».

ثانيًا: بتعلم العلم الواجب المتعلق بفريضة الصوم، لقوله -ﷺ-: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني]، وتفسيره: العلم الخاص بالعمل الذي تلبست به.

وثالثًا: التوبة النصوح من الذنوب والمعاصي، وهذا واجب، ومن التفريط في العمل الصالح، وهذا مستحب، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) [التحريم:8]. و"عَسَى" من الله تعالى واجبة، وقال النبي ﷺ-: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ» [رواه مسلم:2702].

رابعًا: الاستبشار والفرح بقدومه، للتعرض لرحمة الله، كما كان النبي ﷺ-يبشر أصحابه بقدومه فيقول: «أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ » [رواه أحمد والنسائي، وصححه الألباني].

خامسًا: العزم الصادق على صومه، واغتنام أيامه ولياليه، قال الله تعالى: (فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ) [محمد:21]، وقال النبي ﷺ-: «إِنْ تَصْدُقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ» [رواه النسائي، وصححه الألباني]، وقال ﷺ-: «وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ» [رواه مسلم:2664].

ومما عين على ذلك:

1) أن يجتهد الإنسان في إنهاء ما قد يشغله في رمضان من الآن، ومن أكثر ما يشغل الناس رجالاً ونساء -على وجه الخصوص-: اشتغالهم بالاستعداد للعيد بملابسه وتَبِعاته، فبعضهم لا يفطن لذلك إلا وسط شهر رمضان! وكأن يوم العيد يومٌ مفاجئ!

2) أن يتدرب الإنسان على بعض أعمال رمضان من الآن:

- كصيام ما تيسر من أيام شعبان.

- وأن يزيد قليلاً على نصيبه المعتاد من صلاة الليل.

- وأن يزيد قليلاً على حزبه الذي اعتاده من القرآن.

والصوم سيعينك على ذلك كله، من القيام قبل الفجر لتصلي ما تيسر، فإن ذلك له أثرٌ معلوم على صلاح القلب وانكساره، والبعد عن اللغو، وكذلك يعينك على قراءة ما تيسر من القرآن، وهكذا تكون هذه العبادات الثلاث دالةً على بعضها، ومن لم ينشط للصوم فلا تفوتنّه ما بقي.

3) تهيئة أهل البيت معك:

- بتذكيرهم بقرب الشهر الكريم.

- وتدريب من أطاق منهم على بعض ما سبق ذِكره وما سيأتي.

- والتنويه على هذا في الجلسات الأسرية، ولسان حالهم: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ) [مريم: 12]، (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) [طه: 132].

4) وإذا وضعتَ مجموعةً من الأعمال في هذا الشهر فحاسب نفسك عليها يومياً؛ لتدرك أوجه الخلل، ومن أين أُتيت؟ فإذا دخل رمضان إذا بك قد تهيأت جيداً، وعرفت أوجه القصور، قبل أن ينفرط عليك الشهر دون قوةٍ في العمل.

5) وهو من أهم الخطوات: لنتساءل عن طريقة قراءتنا للقرآن: أهي قراءة لمجرد القراءة؟ ونيل ثواب الأحرف المتلوة فقط؟ أم هي قراءة نريد منها صلاح قلوبنا؟

⇦الواقع الذي يُرى في عموم المسلمين: أن أكثر الناس يفتش عن الكمّ لا الكيف، لهذا قلّ أثر القرآن على قلوبنا وحياتنا! إلا من رحم الله.

القرآن يَعظم أثرُه على القلب إذا قُرئ بقلب... فإن قُرئ بلسان لم يَكد يتجاوز أثرُه اللسان! هذه حقيقة دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، وأقوال سلف الأمة.

فلنجعل من جملة ما نستعد به لرمضان: أن نتدرب على قراءة القرآن في شعبان قراءةَ قلبٍ يتلقى رسالات الله، ويعتبر كلَّ آية رسالة من الله، يفتحها بقلبه قبل أن يفتحها من المصحف، لينظر ماذا يريد الله منه؟ يقول الله عز وجل: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) [الحشر: 21]، ويقول جل وعلا: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى) [الرعد: 31] والجواب: لكان هذا القرآن.

فكيف يفتح القرآن كنوزه لقلبٍ غافلٍ غير يقظان، أو لاهٍ مشغول عن عطائه وفيضه.. إنّ القلب إذا حضر عند سماع القرآن، أو تلاوته وقراءته، فُتحت أمامه مغاليق الفهم، وتبدّد لديه كسف الظلام، فإذا بنور القرآن يسري في عقله وقلبه وروحه ودمه؛ فيجعله إنساناً آخر؛ إنساناً يتحرك بالقرآن في شغله ومحياه، ومصبحه وممساه... تتماسك أمامه القيم، ولا تنفلت من بين يديه المعايير.

وتأمل هذه الكلمة المسدَّدة من الإمام الحسن بن علي -رضي الله عنهما- الذي عاش مع القرآن؛ لتدرك الفرق بين مَن يقرأ بقلبٍ ومن يقرأ بلسان، قال -رحمه الله-: "إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها في النهار".

وهذه الكلمة تشير إلى معنى آخر، وهو تفقد القلب بعد قراءة القرآن؛ فتِّش وانظر ماذا صنع القرآنُ بقلبك، فإن وجدت نفسَك لا تزداد إيمانًا، ولا تترك ما أنت عليه من غفلة أو معصية ظاهرة أو باطنة؛ فتأكد أن قراءتك مدخولة وفيها خلل.⇦ولو لم يكن من الاستعداد لرمضان إلا هذا لكفى.

⇦وكان السلف الصالح -رحمهم الله- يحرصون على استثمار أيام شعبان، يقول سلمه بن كهيل: "كان يقال شهر شعبان شهر القرّاء"؛ أي: قرّاء القرآن الكريم، وكان حبيب بن أبي ثابت إذا دخل شعبان قال: "هذا شهر القراء"، وكان عمرو بن قيس -رحمه الله- إذا دخل شعبان أغلق حانوته وتفرّغ لقراءة القرآن، وقال أبو بكر البلخي: "شهر رجب شهر الزرع، وشهر شعبان شهر سقي الزرع، وشهر رمضان شهر حصاد الزرع"، وقيل: شهر رجب مثل الريح، وشعبان مثل الغيم، ورمضان مثل المطر، ومن لم يزرع ويغرس في رجب، ولم يسق في شعبان فكيف يريد أن يحصد في رمضان؟!.

6) ومن جملة ما يستعد به الإنسان لرمضان في هذا الشهر - شهر شعبان -: أن يكون للعبد خلوات خاصة، يتفرد فيها ليذكر الله تعالى خالياً، يرقِّق قلبَه، ويستلين له بذكر الله، وتذكُّر الوقوف بين يديه،

والقدوم عليه، ويحاسب نفسه؛ ماذا قدّم فيما سلف؟ وهل الحال التي هو عليها الآن مرْضية؟ وهذه من أفضل الطرق لتليين القلوب وتنقيتها، وتهذيب النفوس، لعل الله أن يهيئ له قلبًا يتلقى ذاك الشهر العظيم، ولعل الله أن يفتح عليه بدمعة فيكون من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله "ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه" (متفق عليه)

وحين نقول: خلوات، فلا يصح أبدًا، بل لا تكون خلوة أن تجلس في هذه الخلوة والجوال عن يمينك أو شمالك! أو تتشوف أنت للرد على غيرك، بل انقطع تمامًا.. إنما هي سويعة في اليوم تخلو بها؛ لا في رمضان فقط، بل في كل أيام حياتك، وستجد لها أثراً عظيماً في حياتك وعمرك كله.

7) فمن جملة الأعمال التي تُعين على الاستعداد وتلقي هذا الشهر العظيم على أحسن حال: تقليل الخلطة بالناس إلا لحاجة: كوظيفة، وقضاء حوائج الأهل في الأسواق، وتخفيف الارتباط الذي لا مقصد منه إلا التسلية فحسب، وربما تضييع الوقت في غير فائدة! فإن الخلطة عموماً — بالتجربة والبرهان – إذا خرجت عن حد الحاجة أفسدت القلبَ وقسّتْه –كما هو معلوم في كل وقت– فكيف بمثل هذه الأزمان الفاضلة!

8) ومن أعظم ما يعين على تهيئة النفس لرمضان: كثرةُ الدعاء، والإلحاح على الله تعالى في أن يبارك له في وقته وعمره، وأن يبارك له في شعبان ورمضان، وأن يجعله في رمضان من أسبق الناس إلى الخير؛ فإن العبد مهما حاول فلا توفيق ولا تسديد إلا بعون الله وتوفيقه، والعبدُ مأمورٌ بفعل الأسباب، واللهُ تعالى كريم، لا يخيّب مَن وقف على بابه، وفعل ما بوسعه من الأسباب.

ختاماً.. ما أحسن قول ابن رجب –رحمه الله–: "يا من فرَّط في الأوقات الشريفة وضيعها، وأودعها الأعمال السيئة وبئس ما استودعها:

مضى رجبٌ وما أحسنتَ فيه *** وهذا شهرُ شعبانَ المبارك

فيا مَن ضيّع الأوقاتَ جهلاً *** بحُرمتها، أفِقْ واحذرْ بَوارَك

فسوف تُفارق اللذاتِ قَسْرًا *** ويُخلي الموتُ كرهاً منك دارَك

تداركْ ما استطعتَ مِن الخطايا *** بتوبةِ مخلصٍ واجعل مدارَك

على طلبِ السلامة مِن جحيمٍ *** فخيرُ ذوي الجرائمِ مَن تَدارك

إِنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْتَثْمِرَ هَذِهِ الْأَيَّامَ، فَكَمْ مِنْ قَرِيبٍ أَدْرَكَ مَعَنَا الْعَامَ الْمَاضِي هُوَ الْآنَ بَيْنَ الْأَمْوَاتِ، هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي مِنْهَا نَهْرَبُ، وَعَنْهَا نُعْرِضُ، كُلَّمَا جَاءَ رَمَضَانُ تَكَاسَلْنَا، فَإِلَى مَتَى؟؟ أَنَتَكَاسَلُ حَتَّى

تَضْعُفَ قُوَّتُنَا وَيَرِقَّ عَظْمُنَا؟؟ أَنَتَكَاسَلُ حَتَّى لاَ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَقُومَ مِنْ أَمَاكِنِنَا أَوْ نَقْضِيَ حَاجَاتِنَا؟؟ أَنَتَكَاسَلُ حَتَّى يَخْرُجَ آخِرُ نَفَسٍ مِنْ أَنْفَاسِنَا؟؟ فَإِلَى مَتَى؟؟

فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَغْتَنِمَ الصِّحَّةَ، أَنْ نَغْتَنِمَ الْفَرَاغَ، أَنْ نَغْتَنِمَ الْغِنَى، أَنْ نَغْتَنِمَ الْحَيَاةَ؛ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ" رَوَاهُ النَّسَائِيُّ.

اللهم بلغنا رمضان، ووفقنا للاستعداد له وتدارك ما انفرط من الأعمار.

المراجع:

❶ خطوات عملية للاستعداد لرمضان: عمر بن عبد الله المقبل.

❷ فضائل شهر شعبان: محمد بن إبراهيم النعيم.

❸ شعبان عظات وأحكام: عبد الله بن محمد العسكر.